﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾

[المجادلة: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استِجلابُ أسبابِ المودَّةِ بعدَ دفعِ أسبابِ التَّباغُضِ

لمّا نهى اللّٰهُ سبحانه عبادَهُ المؤمنينَ عمّا يكونُ سببًا للتَّباغُضِ والتَّنافُرِ أمَرَهم بما يكونُ سببًا لزيادةِ المحبَّةِ والمودَّةِ[1].

تعليمُ المسلمينَ الأدبَ في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ

ولمّا بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ اليهودَ يُحَيّونَ النَّبيَّ ﷺ بما لم يُحيِّهِ بهِ اللّٰهِ، وذَمَّهم على ذلكَ وصَلَ بهِ الأمرَ بتحسينِ الأدبِ في مُجالستِهِ ﷺ، وأمرَ المسلمينَ بالتَّعاطُفِ والتَّآلُفِ في مجلسِهِ؛ حتَّى يتمكَّنوا مِنَ الاستماعِ منهُ والنَّظرِ إليهِ[2].

ذكرُ سببٍ آخرَ مِنْ أسبابِ حزنِ المؤمنينَ ومعالجتُهُ

ولمّا ذكرَ ﷺ ما يَحزُنُ مِنَ السِّرِّ؛ لكونِهِ اختصاصًا عن الجليسِ بالمَقالِ أتبَعَهُ الاختصاصَ بالمَجلسِ الَّذي ينشأُ عنهُ الحزنُ أيضًا، وهو المجلسُ الَّذي تَتَباعدُ به الأبدانُ، فيَلزَمُ عن ذلك مِن الظَّنِّ ما يَلزَمُ مِن السِّرِّ في الكلام[3].

ذكرُ آدابِ الجلوسِ مع المَلَأ

ولمّا نهى تعالى عن التَّناجي والسِّرارِ عُلِمَ منهُ الجلوسُ مع المَلَأ، فذكرَ آدابَهُ[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفَسَّحُواْ﴾: (فسح) أصلٌ يدلُّ على سَعَةٍ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 127.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 296.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 373.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170، والقاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 170 - 171.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسح).

فَسُحَ المكانُ فَساحةً[1]، وتفسَّحَ وانفسحَ[2]، والفُسُحُ والفسيحُ: الواسعُ مِنَ المكانِ[3]، ويقالُ: فَسَحَ له في المجلسَ يَفْسَحُ فَسْحًا وفُسوحًا، وتفسَّحَ: وسَّعَ[4]، وقد تفاسحَ القومُ: فَسَحَ بعضُهم لبعضٍ، ورجل فُسُحٌ؛ أي: واسعُ الصَّدرِ[5]. والمرادُ بالتَّفسُّحِ هنا: التَّوسُّعُ في المجلسِ، بأنْ يوسِعَ بعضُهم لبعضٍ، ولا يتضامّوا[6].

2) ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾: (جلس) أصلٌ يدلُّ على الارتفاعِ في الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ: الجلوسُ، وهو النُّهوضُ والارتفاعُ عن نومٍ واضطجاعٍ[7]، والمجلسُ: الموضعُ الَّذي يقعدُ فيهِ الإنسانُ[8]. والمرادُ بهِ هنا: مجلسُ رسولِ اللّهِ ﷺ، أو مجلسُ القتالِ، أو جميعُ المجالسِ والمَجامعِ[9].

3) ﴿ٱنشُزُواْ﴾: (نشز) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ وعلوٍّ[10]، ومِنْ ذلكَ: النَّشزُ، وهو المرتفعُ مِنَ الأرضِ، ونُشوزُ المرأةِ: بُغضُها لزوجِها ورفعُ نفسِها عن طاعتِهِ[11]. والمرادُ بالنُّشوزِ هنا: الارتفاعُ والقيامُ للتَّوسعةِ على الدّاخلِ، أو القيامُ مِنْ عندِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وعدمُ التَّطويلِ في الكلامِ، أو القيامُ إلى الصَّلاةِ والجهادِ وأعمالِ الخيرِ[12].

4) ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: (درج) أصلٌ يدلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ والمُضيِّ فيهِ[13]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: درجَ، إذا مضَى لسبيلِهِ[14]، وفلانٌ يتدرَّجُ في كذا؛ أي: يتصعَّدُ فيهِ درجةً درجةً[15]، والدَّرجةُ: الرِّفعةُ والمنزلةُ[16]. وهو المرادُ هنا.

---

(1) ابن سيده، المخصص: (فسح).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فسح).
(3) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (فسح).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فسح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فسح).
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 195.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلس).
(8) الجوهري، الصّحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جلس).
(9) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشز).
(11) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (نشز).
(12) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 494.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درج).
(14) الزّبيدي، تاج العروس: (درج).
(15) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (درج).
(16) الخليل، العين: (درج).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رعـايـةُ الأدبِ مِنْ سِماتِ أهلِ الإيمانِ والعِلْمِ

يحثُّ اللّهُ تعالى عبادَهُ على أدبٍ مِنْ آدابِ المجالسِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذينَ صدَّقوا اللّهَ ورسولَهُ؛ إذا قيلَ لكم: توسَّعوا في المجالسِ فوسِّعوا، يوسِّعِ اللّهُ لكم في الدُّنيا والآخرةِ، وإذا قيلَ: انهَضوا مِنْ مجالسِكم، أو قوموا إلى قتالِ عدوٍّ أو صلاةٍ أو عملِ خيرٍ، أو تفرَّقوا عن رسولِ اللّهِ ﷺ فقوموا، يَرفَعِ اللّهُ المؤمنينَ منكم بطاعتِهم، ويرفعِ الَّذينَ أوتوا العلمَ مِنْ أهلِ الإيمانِ على المؤمنينَ الَّذينَ لم يُؤتَوا العلمَ درجاتٍ، واللّهُ بأعمالِكم خبيرٌ، لا يخفَى عليهِ المُطيعُ مِنكم ربَّهُ مِنَ العاصي، وهو مُجازٍ كُلًّا مِنكم بعملِهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ توسيطِ هذهِ الآيةِ بينَ آياتِ النَّجوى:

جـمـعُ آيـاتِ التَّأدُّبِ مع النَّبيِّ في صعيدٍ واحدٍ

فُصِلَ بينَ آياتِ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالنَّجوى بهذهِ الآيةِ؛ مراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بينَ مضمونِ هذهِ الآيةِ ومضمونِ الَّتي بعدَها في أنَّهما يَجمَعُهما غرضُ التَّأدُّبِ مع الرَّسولِ ﷺ، وتلكَ المراعاةُ أولى مِنْ مراعاةِ اتِّحادِ سياقِ الأحكامِ.

ففي هذهِ الآيةِ أدبٌ في مجلسِ الرَّسولِ ﷺ، والآيةُ الَّتي بعدَها تتعلَّقُ بالأدبِ في مناجاتِهِ، وأُخِّرَتْ تلكَ عن آياتِ النَّجوى العامَّةِ إيذانًا بفضلِها دونَ النَّجوى الَّتي تضمَّنَتْها الآياتُ السّابقةُ، فاتِّحادُ الجنسِ في النَّجوى هو مُسوِّغُ الانتقالِ مِنَ النَّوعِ الأوَّلِ إلى النَّوعِ الثّاني، والإيماءُ إلى تميُّزِها بالفضلِ هو الَّذي اقتضَى الفصلَ بينَ النَّوعينِ بآيةِ أدبِ المجلسِ النَّبويِّ. وأيضًا قد كانَ للمنافقينَ نيَّةُ مكرٍ في قضيَّةِ المجلسِ كما كانَ لهم نيَّةُ مكرٍ في النَّجوى، وهذا ممّا أنشأ مناسبةَ الانتقالِ مِنَ الكلامِ على النَّجوى إلى ذكرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ[2].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 243 - 247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 36 - 37.

علَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

يَجِبُ على المؤمنينَ العنايةُ بأدبِ المجالسِ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بهِ لأمرِ المؤمنينَ بآدابٍ جديدةٍ تتعلَّقُ بالمجالسِ، وفي الفصلِ تأكيدٌ لأهمّيَّتِهِ واستقلالِهِ، ولو عُطِفَ على ما قبلَهُ لربَّما ظُنَّ أنَّهُ مِنْ تَوابعِهِ، فلم يُلتفَتْ إليهِ حقَّ الالتفاتِ.

سرُّ تكرارِ النِّداءِ:

المؤمنونَ حَريصونَ على تعلُّمِ الآداب

افتُتِحَ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ بالنِّداءِ مع تقدُّمِهِ قبلَ ذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لتنبيهِ المخاطَبينَ إلى أهمّيَّةِ ما يتلوهُ مِنَ الكلامِ.

تعيينُ المخاطَبِ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

المؤمنُ يُراعي الأدبَ في مجلسِ النَّبيِّ وفي كلِّ المَجالِس

الخطابُ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطابٌ لجميعِ المؤمنينَ، يَعُمُّ مَنْ حضروا المجلسَ الَّذي وقعَتْ فيهِ حادثةُ سببِ النُّزولِ وغيرَهم ممَّنْ عسى أنْ يحضرَ مجلسَ الرَّسولِ ﷺ[1]. وإذا حُمِلَ الكلامُ على عمومِ المَجالسِ فالخطابُ للمؤمنينَ في كلِّ زمانٍ.

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

المُؤمنُ يَمتَثِلُ لأمرِ الشّارِعِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو وصفُ الإيمانِ - إلى تنشيطِ المُخاطَبينَ وحَثِّهم على الاستماعِ لِما بعدَهُ مِنَ التَّكليفِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الإيمانَ داعٍ إلى الامتثالِ[2]. ويُقالُ في صلتِهِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ ما قيلَ في مَطلَعِ الآيةِ السّابقةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 19/ 375.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ في المَوضِعَين:

الإيمانُ بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بهِ صفةُ المؤمنِ

حُذِفَ متعلَّقُ الإيمانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ إيجازًا لظهورِهِ؛ إذ المرادُ الإيمانُ باللهِ ورسولِهِ وبكلِّ ما يجبُ الإيمانُ بهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ في ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾:

المؤمنُ يوسِّعُ لإخوتِهِ المؤمنين

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على قوَّةِ الارتباطِ بينَ طلبِ التَّفسُّحِ منهم وبينَ الامتثالِ لهذا الطَّلبِ بتفسُّحِهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ للمؤمنِ على أنَّهُ لا ينبغي لهُ أنْ يتخلَّفَ عمّا فيهِ توسعةٌ على المسلمينَ. ومثلُهُ يقالُ في استعمالِ الشَّرطِ في قولِهِ جَلَّ في عُلاهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

طَلَبُ التَّفسُّحِ في المَجالِسِ كثيرُ الحُصول

أوثِرَتْ ﴿إِذَا﴾ على (إنْ) في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾، مع أنَّ كلًّا منهما للشَّرطِ في المستقبلِ؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ فيهِ، وطلبُ التَّفسُّحِ منَ المؤمنينَ في المجالسِ أمرٌ كثيرُ الحصولِ، لا سيَّما في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ الَّذي يَحرِصونَ على حضورِهِ، ويَزدَحِمونَ فيه عادةً. ومثلُهُ يقالُ في إيثارِ (إذا) في قولِهِ سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قِيلَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

طلبُ التَّفسُّحِ بمنزلةِ الحاصلِ في الماضي

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ كما تقدَّمَ، والماضي أقربُ إلى القطعِ بالنَّظرِ إلى لفظِهِ وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ طلبَ التَّفسُّحِ منهم بمنزلةِ الحاصلِ.

وبُنِيَ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ المؤمنَ يَمتَثِلُ للأمرِ بالتَّفسُّحِ أيًّا كانَ الآمرُ به؛ فإنَّ الخيرَ يُرغَبُ فيه لذاتِه[1].

الخيرُ مرغوبٌ فيهِ لِذاتِه

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ البناءُ للمفعولِ لظهورِ الفاعلِ؛ أي: إذا قالَ لكم الرَّسولُ: تفسَّحوا فافسَحوا، فالآيةُ لا تدلُّ إلّا على الأمرِ بالتَّفسُّحِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، ولكنْ يستفادُ منها أنَّ تفسُّحَ المسلمينَ بعضِهم لبعضٍ في المجالسِ محمودٌ مأمورٌ بهِ وجوبًا أو ندبًا، فهو مِنْ مكمِّلاتِ واجبِ التَّحابِّ بينَ المسلمينَ وإنْ كانَ فيهِ كُلفةٌ على صاحبِ البُقعةِ يضايقُهُ فيها غيرُهُ؛ فهي كُلفةٌ غيرُ مُعتبَرةٍ إذا قوبِلَتْ بمصلحةِ التَّحابِّ وفوائدِه، وذلكَ ما لم يُفْضِ إلى شدَّةِ مُضايقةٍ ومَضَرَّةٍ، أو إلى تفويتِ مصلحةٍ مِنْ سماعٍ أو نحوِه، كمجالسِ العلمِ والحديثِ وصفوفِ الصَّلاةِ[2]. ومثلُ هذا يُقالُ في الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قولِه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

قد يكونُ الأمرُ بالتَّفسُّحِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾:

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ للتَّبليغِ؛ بمعنى إيصالِ القولِ لهم ليَعمَلوا بمقتضاهُ.

تبليغُ الأمرِ بالتَّفسُّحِ إلى المخاطَبينَ

دلالةُ الأمرِ في ﴿تَفَسَّحُواْ﴾:

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ واردٌ على سبيلِ الوجوبِ أو على سبيلِ النَّدبِ[3]، على حسبِ مصلحةِ المسلمين في المجلسِ الَّذي يَحضُرونه، والغرضُ منهُ الحثُّ على ما يُؤدّي إلى التَّحابِّ بينَ المسلمينَ.

التَّفسُّحُ واجبٌ أو مندوبٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّفسُّحِ:

عُبِّرَ بالتَّفسُّحِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾؛

المُضايقةُ والمُراصَّةُ مَمنوعةٌ في المَجالِس

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.

لدلالتِهِ على تجنُّبِ المُضايقةِ والمُراصَّةِ، بحيثُ يَفوتُ المقصودُ مِنْ حضورِ ذلكَ المجلسِ، أو يحصلُ ألمٌ أو أذًى للجالِسينَ[1].

سرُّ تضعيفِ الفعلِ ﴿تَفَسَّحُواْ﴾:

جيءَ بصيغةِ التَّفعُّلِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾؛ لدلالتِها على التَّكلُّفِ؛ أي: كَلِّفوا أنفسَكم في تَوسِعَةِ المكانِ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى بذلِ غايةِ الوُسْعِ في التَّوسعةِ للمؤمنينَ في المجالسِ.

بَـذْلُ الـوُسْـعِ فـي الـتَّـوسِـعَـةِ للمؤمنين

معنى ﴿فِي﴾ مِن قولِهِ: ﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾:

قولُهُ ﷺ: ﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿تَفَسَّحُواْ﴾، أو بـ﴿قِيلَ﴾[3]، وعلى الأوَّلِ يفيدُ الكلامُ أنَّ المجالسَ ظرفُ مكانٍ للتَّفسُّحِ، وعلى الثّاني يفيدُ أنَّها ظرفُ مكانٍ للأمرِ بهِ، والمآلُ واحدٌ؛ إذ الأمرُ بالتَّفسُّحِ فيها يَستَدعي وقوعَ التَّفسُّحِ فيها.

التَّفسُّحُ المأمورُ بـهِ يـكـونُ في المَجالِس

توجيهُ القراءاتِ في ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾:

قَرَأ عاصمٌ: ﴿فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ بالجمعِ، وقرأ الباقونَ: ﴿فِي ٱلْمَجْلِسِ﴾ بالإفرادِ[4]. والمرادُ بـ﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾ على الإفرادِ: مجلسُ النَّبيِّ ﷺ، فيكونُ التَّعريفُ للعهدِ، أو المرادُ جنسُ المجلسِ، ويدخلُ فيهِ مجلسُ النَّبيِّ ﷺ دخولًا أوَّليًّا[5]. وأمّا قراءةُ الجمعِ: ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ فهي باعتبارِ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهم مَجلِسًا[6]، فاللّامُ للجنسِ، أو للعهدِ والمرادُ مجالسُ النَّبيِّ ﷺ كلَّما تكرَّرَتْ[7].

اختِلافُ القِراءاتِ بالجَمْعِ والإفراد

معنى الفاءِ في ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾:

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱفْسَحُواْ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛

المُؤمِنُ يُسارِعُ في التَّفسُّحِ إذا طُلِبَ مِنه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 493، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 38.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 37.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.
(4) ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/ 385.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 505.
(6) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 272.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.

لأنَّهُ جملةٌ طلبيَّةٌ، وفائدةُ الفاءِ تقويةُ الرَّبطِ بينَ الشَّرطِ والجوابِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى ضرورةِ المسارعةِ في امتثالِ الأمرِ بالتَّفسُّحِ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾:

الإفساحُ واجبٌ أو مندوبٌ

الأمرُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ للوجوبِ، أو للنَّدبِ[1]، وأيًّا ما كانَ فالمطلوبُ مِنَ المؤمنينَ التَّوسعةُ لإخوانِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالإفساحِ دونَ التَّفسُّحِ:

مَنِ امتَثَلَ للأمرِ بالتَّوسِعَةِ يسَّرَ اللهُ عليه

عُبِّرَ بالإفساحِ دونَ التَّفسُّحِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾؛ لأنَّ في صيغةِ التَّفعُّلِ إشارةً إلى التَّكلُّفِ في التَّوسعةِ في المجلسِ، فلم يُعبَّرْ بها؛ للإيماءِ إلى أنَّ المؤمنَ الَّذي يستجيبُ لطلبِ التَّفسُّحِ يُيسِّرُ اللهُ عليهِ، فلا يجدُ صعوبةً في الامتثالِ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على التَّوسعةِ.

نكتةُ صيغةِ المضارعِ المجزومِ في ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾:

مَنْ وسَّعَ لعبادِ اللهِ وسَّعَ اللهُ له

قولُهُ ﷻ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ مجزومٌ في جوابِ قولِهِ: ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾[2]، كأنَّهُ قيلَ: إنْ تفسَحوا يَفسَحِ اللهُ لكم، وهو وعدٌ بالجزاءِ على الامتثالِ لأمرِ التَّفسُّحِ مِنْ جنسِ الفعلِ؛ إذ جُعِلَتْ توسعةُ اللهِ للمُمتَثِلِ جزاءً على امتثالِهِ الَّذي هو إفساحُهُ لغيرِهِ[3].

سرُّ إيثارِ اسمِ الجلالةِ في ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾:

اللهُ تعالى واسعٌ كريمٌ مُقتَدِر

أوثِرَ اسمُ الجلالةِ على غيرِهِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومِنها أنَّ لهُ الأمرَ كلَّهُ والعظمةَ الكاملةَ[4]، فهو قادرٌ على أنْ يوسِّعَ لِمَنْ وسَّعَ لعبادِهِ، وهو كريمٌ في هذهِ التَّوسعةِ.

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمۡۖ﴾:

فائدةُ التَّفسُّحِ عائدةٌ على المُفسِحِ

اللّامُ في قولِ الحقِّ جلَّ سلطانُهُ: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ للتَّعليلِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 37 - 38.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

أي: يفسحِ اللَّهُ لأجلِكم، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ فائدةَ التَّفسُّحِ تعودُ على المُفسِحَ، فينبغي عليهِ أنْ يُبادِرَ لاغتنامِ هذهِ الفُرصةِ، وقَطْفِ هذهِ الثَّمرةِ.

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَفْسَحِ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مُطلَقٌ في كلِّ ما يَطلُبُ النّاسُ الفُسْحةَ فيهِ، مِنَ المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ والقبرِ والجنَّةِ[1]، فهو شاملٌ لخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ العملَ الصَّغيرَ الَّذي يعملُهُ المؤمنُ - كالتَّفسُّحِ في المجلسِ - قد يُفيضُ عليهِ خيراتٍ كثيرةً.

توسِعةُ اللهِ تعالى مُطلَقةٌ في خيرَيِ الدُّنيا والآخرة

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾، والنُّشوزُ: النُّهوضُ مِنَ المكانِ، وهو أخصُّ مِنَ التَّفسُّحِ مِنْ وجهٍ، فهو مِنْ عطفِ الأخصِّ مِنْ وجهٍ على الأعمِّ منهُ؛ للاهتمامِ بالمعطوفِ؛ لأنَّ القيامَ مِنَ المجلسِ أقوى مِنَ التَّفسُّحِ مِنْ قُعودٍ، فذُكِرَ النُّشوزُ لئلّا يُتوهَّمَ أنَّ التَّفسُّحَ المأمورَ بهِ تفسُّحٌ مِنْ قعودٍ فقطْ[2]، بل قد يكونُ بالقيامِ للتَّحوُّلِ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ[3].

التَّفسُّحُ قد يكونُ بالقيامِ مِنَ المكانِ

سرُّ عدمِ تكرارِ (لكم):

لم يُكرَّرْ (لكم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ إيجازًا؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾.

الاستغناءُ بالمُقدَّمِ عن المؤخَّرِ

يُضافُ إليه أنَّه لمّا كان النُّشوز بمعنى القيام مِن المكانِ لم يُخصِّصْهُ بتوجيهِ الخطابِ المُباشرِ لهم بالقيد (لكم) تَلَطُّفًا، مع كونه نوعًا من أنواع التَّفسُّح.

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 492، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 449.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 375.

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾:

المُؤمِنُ يُؤثِرُ إخوانَهُ المؤمنينَ على نفسِه

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ للوجوبِ أو النَّدبِ، وأيًّا ما كانَ فهو حثٌّ للمخاطَبينَ على النُّشوزِ عندَ الحاجةِ إليهِ للتَّوسعةِ في المجالسِ وإنْ أدَّى ذلكَ إلى قيامِهِ مِنْ مكانِهِ، وإيثارِ غيرِهِ على نفسِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالنُّشوزِ:

المؤْمِنُ يَرتَفِعُ عن مكانِ جلوسِهِ إذا طُلِبَ منهُ ذلك

عُبِّرَ بالنُّشوزِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ لدلالتِهِ على الارتفاعِ عندَ النُّهوضِ مِنَ المكانِ الَّذي استقرَّ فيهِ[1]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنَ ينهضُ مِنْ مكانِهِ ليُفسِحَ لغيرِهِ مِنْ إخوانِهِ المؤمنينَ، فهو يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسِهِ، وبذلك يَرتفعُ مَقامُهُ عندَ اللهِ، وبينَ عبادِ اللهِ.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنشُزُواْ﴾:

مُسارَعةُ المُخاطَبينَ في النُّشوز

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّهُ جملةٌ طلبيَّةٌ، وغرضُ الفاءِ تقويةُ الارتباطِ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المخاطَبينَ لا ينبغي لهم أنْ يتخلَّفوا عن الامتثالِ للأمرِ بالنُّشوزِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المجزومِ ﴿يَرۡفَعِ﴾:

مَنِ ارتَفَعَ لإخوانِهِ رفَعَهُ اللهُ

قولُهُ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ جوابٌ للأمرِ في ﴿فَٱنشُزُواْ﴾[2] مجزومٌ به، كأنَّهُ قيلَ: إنْ تَنْشُزوا يَرفعِ اللهُ ﷻ المؤمنينَ منكم[3]، وهو وعدٌ بمُجازاةِ مَنِ ارتفَعَ عن مجلسِهِ تَوسعةً لغيرِهِ بمثلِ صنيعِهِ، وذلكَ بأنْ يرفعَ اللهُ تعالى درجاتِهِ[4].

بلاغةُ الاستِعارةِ في قولِهِ: ﴿يَرۡفَعِ﴾:

أهلُ الإيمانِ والعلمِ مُفضَّلونَ مُكرَّمونَ عندَ الله

الرَّفعُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 39.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40.

﴿ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ رفعٌ مجازيٌّ، وهو مُستعارٌ للتَّفضيلِ والكرامةِ[1]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أهلَ الإيمانِ والعلمِ مُفضَّلونَ مُكرَّمونَ عندَ اللهِ ﷻ.

بلاغةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في موضعِ إضمارِهِ:

أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ مع أنَّ الظّاهرَ الاستغناءُ بالضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على جميعِ صفاتِ العظمةِ والجلالِ؛ ترغيبًا في الامتثالِ، وذلكَ لِما للنَّفسِ مِنَ الشُّحِّ بما يُخالِفُ المألوفَ[2]، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ بجَرَيانِ الجملةِ مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

النَّفْسُ شحيحةٌ بما يُخالِفُ مألوفَها

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

كانَ مُقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (يرفعِ اللّهُ النّاشزينَ منكم)، إلّا أنَّهم استُحضِروا بالموصولِ بصلةِ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾؛ لِما تُؤذِنُ بهِ الصِّلةُ مِنَ الإيماءِ إلى علَّةِ رفعِ الدَّرجاتِ، وهي إيمانُهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ امتثالَهم للأمرِ مصحوبٌ بالإيمانِ[3].

امتِثالُ النّاشِزينَ مصحوبٌ بإيمانِهم

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِهم في وصفِ الإيمانِ الموجِبِ لعلوِّ الشَّأنِ[4]؛ لأنَّ الماضيَ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ قد تحقَّقَ منهم.

النّاشِزونَ المَرفوعونَ مُتَحقِّقو الإيمانِ

معنى (مِنْ) في ﴿مِنكُمۡ﴾:

ضميرُ جماعةِ العُقَلاءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ خطابٌ للَّذينَ نودوا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، و(مِنْ) تبعيضيَّةٌ؛ أي: يرفعِ اللّهُ الَّذينَ استجابوا للأمرِ بالنُّشوزِ إذا كانوا مِنَ المؤمنينَ؛ أي: دونَ مَنْ يَضُمُّهُ المجلسُ مِنَ المنافقينَ[5].

رِفعةُ الدَّرَجاتِ لأهلِ الإيمانِ فقط

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 41.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 506، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 41.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40 - 41.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو مِنْ عطفِ الصِّفاتِ، والمعنى: يرفعِ اللَّهُ المؤمنينَ العلماءَ درجاتٍ، فالوصفانِ لذاتٍ واحدةٍ[1].

المَرفوعونَ مُتَّصِفونَ بالإيمانِ والعِلْم

ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الَّذينَ أوتوا العلمَ بعضُ المؤمنينَ منهم[2]. ونكتةُ هذا العطفِ: تعظيمُ الخاصِّ - وهم العلماءُ - كأنَّهُ جنسٌ آخرُ، وحثُّ العلماءِ على تركِ ما عُرِفوا بالحرصِ عليهِ مِنْ رِفعةِ المَجالسِ وحُبِّهم للتَّصديرِ، وهذا مِنْ إعجازِ القرآنِ؛ لأنَّهُ قد ظهرَ مِنْ هؤلاءِ في سائرِ الأعصارِ تنافُسٌ في ذلكَ[3].

تَنافُسُ العلماءِ في التَّصدُّرِ ورِفعةِ المَجالِس

وفي عطفِ الخاصِّ على العامِّ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ يشهدُ مجلسَ رسولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ المؤمنينِ أحدُ رجلينِ: عاملٍ يَسمَعُ للعملِ، وعالمٍ عاملٍ يَسمَعُ للعملِ والاستنباطِ والتَّعليمِ، فأرادَ اللَّهُ ﷻ مدحَ الفريقينِ، وتفضيلَ أحدِهما على الآخرِ مِنْ حيثُ لا يَلزَمُ منهُ نقصُهُ[4].

مَجالِسُ رسولِ اللهِ ﷺ مَجالِسُ علمٍ وعَمَل

سرُّ تكرارِ الموصولِ في ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

أُعيدَ الموصولُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لتأكيدِ ما في عطفِ الخاصِّ على العامِّ مِنَ الإشعارِ بتعظيمِ الخاصِّ واستقلالِهِ، حتَّى كأنَّهُ جنسٌ آخرُ مُغايرٌ لجنسِ العامِّ[5]. وفي ذلك إثباتٌ لمزيَّةِ المؤمنِ العالمِ على المؤمنِ غيرِ العالمِ.

المُؤمِنُ العالِمُ مُفضَّلٌ على المُؤمِنِ غيرِ العالِم

بَراعَةُ صَوْغِ الفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

جيءَ بالفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

العالِمُ الرّاسِخُ يَستَحِقُّ الرَّفعَ والتَّكريم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 128.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 272.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 15/ 287.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 170، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 223.

ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ للتَّنبيهِ على رُسوخِهم في العلمِ وتحقُّقِهم فيهِ، ولذلكَ استحقّوا الرَّفعَ والتَّكريمَ مِنَ اللّهِ ﷻ.

شَـرَفُ العِـلْـمِ عظيم

وبُنِيَ ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ للمفعولِ؛ للإشعارِ بتعيُّنِ الفاعلِ، وهو اللّهُ ﷻ، وفي ذلكَ تشريفٌ لشأنِ العلمِ، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّنبيهِ على أنَّ العلمَ في نفسِهِ كافٍ في الإعلاءِ، مِنْ غيرِ نظرٍ إلى مُؤْتٍ مُعيَّنٍ[1].

دلالةُ تعريفِ العلمِ:

جنسُ العِلْمِ يُشَرِّفُ حامِلَه

تعريفُ العلمِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ للجنسِ؛ أي: أوتوا جنسَ الشَّيءِ المُسمَّى بالعلمِ.

سرُّ عدمِ تكرارِ القَيْدِ (مِنْكم) في ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

العِـلْـمُ يُعلي صاحبَهُ مطلقًا

تُرِكَ التَّقييدُ بـ(مِنْكم) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وإنْ كانَتْ مرادةً؛ لإفادةِ أنَّ العلمَ يُعلي صاحبَهُ مطلقًا، فإنْ كانَ مؤمنًا عاملًا بعلمِهِ كانَ النِّهايةَ في العلوِّ، وإنْ كانَ عاصيًا كانَ أرفعَ مِنْ مؤمنٍ عاصٍ وعارٍ عن العلمِ، وإنْ كانَ كافرًا كانَتْ رِفعتُهُ دنيويَّةً بالنِّسبةِ إلى كافرٍ غيرِ عالمٍ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

الـدَّرَجـاتُ كراماتٌ عندَ اللهِ ﷻ

انتصَبَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ؛ أي: يَرفَعِ اللّه الَّذين أوتوا العلم رفعًا كائنًا في درجاتٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على المصدريَّةِ على تقديرِ: يَرفَعُهم مَرافِعَ.

والدَّرَجاتُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ مُستعارةٌ للكرامةِ؛ فإنَّ مكانَ الرَّفعِ في الآيةِ له رفعٌ مجازيٌّ، والمرادُ بهِ التَّفضيلُ والكرامةُ كما تقدَّمَ، وجيءَ للاستعارةِ بترشيحِها بكونِ الرَّفعِ درجاتٍ، وهذا التَّرشيحُ أيضًا استعارةٌ[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 376.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ وجمعِهِ:

الـدَّرَجـاتُ مُتنوِّعةٌ وعظيمةُ الشَّأن

تنكيرُ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾؛ للإشارةِ إلى أنواعِها مِنْ درجاتِ الدُّنيا ودرجاتِ الآخرةِ[1]. وفيهِ تعظيمٌ لها أيضًا؛ أي: درجاتٍ عاليةً[2] عظيمةَ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُها.

دلالةُ الواوِ في جُملةِ الفاصِلة:

استِشعارُ مُراقَبةِ اللهِ يَحُثُّ على الاستِجابة

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لتأكيدِ ما سبقَ مِنَ الأوامرِ؛ أي: واللهُ عليمٌ بأعمالِكم ومُختلِفِ نيّاتِكم مِنَ الامتثالِ وعدمِهِ[3]. ويُحتمَلُ أنْ تكونَ حاليَّةً؛ أي: والحالُ أنَّ اللهَ بما تعملونَ خبيرٌ[4].

بلاغةُ اسميَّةِ جملةِ الفاصِلة:

إحاطتُهُ تعالى بكلِّ شيءٍ عِلْمًا حقيقةٌ ثابتة

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كونَهُ تعالى خبيرًا بأعمالِ المخاطَبينَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

غرضُ الإخبارِ بجُملةِ الفاصِلة:

مَنْ لم يُراعِ أوامرَ اللهِ فهو على خَطَر

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ خبرٌ يُرادُ بهِ الوعيدُ والتَّهديدُ لمَنْ لم يَمتثِلِ الأمرَ، أو استكرَهَهُ[5].

سرُّ تكرارِ اسمِ الجلالةِ وإظهارِهِ:

مَنْ عَرَفَ صفاتِ العظيمِ خَشيَهُ وامتَثَلَ أوامرَه

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وهو بما تعملونَ خبيرٌ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسمِ الجلالةِ، لكنْ أُظهِرَ اسمُ الجلالةُ وكُرِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، ومنها القدرةُ

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 9/ 171، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 220، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 42.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 279، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 195.

التّامَّةُ والعلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ[1]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ تربيةِ المهابةِ، والحثِّ على الامتثالِ. يُضافُ إلى ذلكَ ما في الإظهارِ مِنْ تأكيدِ استقلالِ جملةِ التَّذييلِ بحيثُ تَجري مَجْرى الأمثالِ.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

تَعَلُّقُ عِلْمِ اللهِ تعالى بأعمالِ المُخاطَبين

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ للتَّعديةِ، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿خَبِيرٌ﴾، فيفيدُ الكلامُ أنَّ أعمالَ المخاطَبينَ مُتعلَّقُ خِبْرةِ اللّهِ تعالى.

غرضُ الإتيانِ بـ(ما) الموصولة:

أعمالُ المُخاطَبينَ كلُّها مُحاطٌ بها عِلْمًا

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للوعيدِ، ببيانِ أنَّ كلَّ عملٍ يَصدُرُ مِنَ المخاطَبينَ فهو تحتَ سلطانِ علمِ اللّهِ تعالى وقدرتِهِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

علمُ اللهِ تعالى مُحيطٌ مع كثرةِ العاملينَ وأعمالِهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ لإفادةِ تجدُّدِ العملِ واستمرارِهِ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِ علمِ اللّهِ تعالى ببيانِ أنَّهُ سبحانَهُ لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أعمالِهم على كثرةِ العاملينَ وكثرةِ أعمالِهم وتنوُّعِها.

غرضُ تقديمِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

حُظوظُ النَّفسِ حَريَّةٌ بمَزيدِ التَّرهيبِ

قُدِّمَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿خَبِيرٌ﴾ وإنْ كانَ علمُهُ سبحانَهُ بالأشياءِ كلِّها على حدٍّ سواءٍ؛ تنبيهًا على مزيدِ الاعتناءِ بالأعمالِ، لا سيَّما الباطنة؛ مِنَ الإيمانِ والعلمِ اللَّذينِ هما الرّوحُ العُظمَى؛ لأنَّ المَقامَ لنزولِ الإنسانِ عن مكانِهِ بالتَّفسُّحِ والانخفاضِ والارتفاعِ، ولا يخفَى ما في ذلكَ مِنْ حظِّ النَّفسِ الحاملِ على الجَرْيِ مع الدَّسائسِ، فكانَ جديرًا بمزيدِ التَّرهيبِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 227.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377 - 378.

سرُّ إيثارِ الخبيرِ على غيرِهِ:

التَّنبيهُ على العلمِ البالغِ أنسبُ بمَقامِ التَّرهيب

أوثِرَ الخبيرُ على غيرِهِ - كالعليمِ مثلًا - في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لأنَّ الخبيرَ هو العليمُ بالظّاهرِ والباطنِ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّرهيبِ والحثِّ على الاستجابةِ.

نكتةُ صَوْغِ ﴿خَبِيرٞ﴾ على زِنَةِ (فَعيلٍ):

اتِّصافُهُ تعالى بالخِبْرةِ اتِّصافًا بليغًا

جيءَ بصيغةِ (فَعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿خَبِيرٞ﴾؛ لأنَّها مِنْ صيَغِ المبالغةِ، فتفيدُ اتِّصافَهُ تعالى بالخِبْرةِ اتِّصافًا بليغًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّديُّ والمَجلِسُ والمَقامةُ:

المَجالِسُ لا تَختَصُّ بأعيانِ القَوْمِ

النَّديُّ: هو النّادي، وهو المجلسُ وفيهِ أهلُهُ، ولا يقالُ في المجلسِ إذا خلا مِنْ أهلِهِ: نَديٌّ، ويَجلِسُ فيهِ عادةً أعيانُ القومِ.

أمّا المَجلِسُ فيُطلَقُ سواءٌ كانَ فيهِ أهلُهُ أم لا.

وأمّا المُقامةُ بالضَّمِّ: فالمجلسُ الَّذي يُؤكَلُ فيهِ ويُشرَبُ، والمَقامةُ بالفتحِ: المجلسُ الَّذي يُتَحدَّثُ فيهِ[2].

وقد عُبِّرَ بالمجلسِ هنا؛ لأنَّهُ يَجلِسُ فيهِ أعيانُ القومِ وغيرُهم، ولا سيَّما مجلسُهُ ﷺ، فهو لنشرِ العلمِ والخيرِ، فيَحضُرُهُ جميعُ أصنافِ النّاسِ.

التَّفسُّحُ والتَّوسُّعُ:

التَّفسُّحُ يقال في التَّوْسِعَةِ للآخَرِ في المكانِ[3]، والسَّعَةُ تقال في الأمكنةِ، وفي الحالِ، وفي الفعلِ كالقدرةِ والجودِ ونحوِ ذلك[4]، فيكونُ التَّوسُّعُ أعمَّ من التَّفسُّحِ. وقد أوثِرَ في الآيةِ الأخصُّ الدّالُّ على المقصودِ - وهو عدمُ المُضايَقةِ في المَجالِسِ - دلالةً دقيقةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 377.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 537.

(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فسح).

(4) الراغب، المفردات: (وسع).

النُّشوزُ والنُّهوضُ والقيام:

النُّشوزُ يَدُلُّ على الارتفاعِ والعُلوِّ[1]، والنُّهوضُ يَدُلُّ على البَراحِ عن المَوضِعِ والقيامِ عنه[2]، والقيامُ يَدُلُّ على الانتِصاب[3].

وقد عُبِّرَ بالنُّشوزِ في الآية؛ لدلالتِهِ على الارتفاعِ عندَ النُّهوضِ مِنَ المكانِ الَّذي استَقَرَّ فيهِ الجالسُ[4]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنَ يَتَجشَّمُ عَناءَ النُّهوضِ مِنْ مكانِهِ؛ ليَفسَحَ لغيرِهِ مِنْ إخوانِهِ المؤمنينَ، فهو يُحِبُّ لهم ما يُحِبُّ لنفسِهِ، بل يُؤثِرُهم عليها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشز).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نهض).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (قوم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 39.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"